

الحيـاة الدينية في القرن الهجري الأول
بين الواقع وما افترضه المستشرق جولدتسيهر

بـقـلـم :

دكتور / محسن عبد الناظر

رئيس قسم الحديث بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين - تونس سابقاً

أستاذ مساعد بقسم التفسير والحديث

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثالث - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مقدمة : نشأة الاستشراق

إذا كانت المعرفة لاتقرّ بما يقام بين الأمم والشعوب من حواجز مادية ومعنوية ، وإذا كان الإنتاج الفكري لا يخضع للمقاييس السياسية والإقتصادية والإجتماعية في الإنتقال من بلد إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى ، فإن الإسلام ، بما أتى به من توجيهات ، ومن مباديء ومن دعوة إلى طلب العلم ونشره ، قد رغّب كثيرا من الدارسين في الاطلاع على أسراره ، وفهم قوّته ونبله وسموّه بالإنسان إلى مراتب الكمال ، بما بعثه فيه من حبّ الاطلاع ، وتَدَبُّر الأمور ، وتنمية الحضارة والثقافة . لقد اختلفت أجيال هؤلاء الدارسين وبلدانهم ، كما اختلفت عقيدتهم ومذاهبهم وأهدافهم ، فإذا كان أغلب الباحثين للدراسات الإسلامية هم من المسلمين ، إلّا أن غيرهم لم يكن في منأى عن هذه الدراسات .

لقد فتح باب الحجاج والجدل منذ أيّام آزدهار الدولة الإسلامية ، بين علماء المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، وخاصة اليهود والنصّارى . ولم يغلق هذا الباب عبر العصور بل إن الأيام لم تزد هذا الفنّ إلّا انتشارا وتقدّما خاصة حين لمع نجم المفكرين والباحثين المسلمين ، وحين حملوا ما توصلوا إليه من علم ومعرفة إلى أنحاء المعمورة . فقد قال « البارو القرطبي » في كتابه الدليل المنير : « وأقبل أهل مالقة على مصنفات المسلمين في الأدب والفقه والفلسفة (١) .

---

(١) نجيب العفيفي : المستشرقون ١/٩٧ ط ثالثة مصر ١٩٦٤ .

هذا إقبال لم تزده الأيام إلاّ رسوخا وتشبعا خاصة عندما انكب رجال الدين المسيحي على المباحث الإسلامية ، فوجدوا الباب مفتوحا أمامهم للإطّلاع على المدارس والمكتبات . قبع رجال الكنيسة في الأديرة ، يراجعون ويقارنون ويترجمون ويعلقون ، ثم ينشرون ما توصلت إليه بحوثهم ، وكانوا يسعون بطبيعة الحال إلى الإنتصار لدينهم والذود عنه ، وإظهار جوانب تفوّقه على الدراسات الإسلامية .

لقد تحمست الكنيسة لهذا النوع من الدراسات منذ القرن العاشر الميلادي ، فأنشئت مدارس « اوبيدو » ، « وليون » ، « وبرشلونه » ، « وباريس » ، « وأرليان » وغيرها . وبذلت الأموال بكل سخاء على هذه المدارس ، فقد قرر مجمع طليطلة (١٢٥٠م) الإنفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكيين الذين انقطعوا لدراسة العربية ، وصنف أحدهم أوّل معجم عربي إسباني (١٢٣٠م)[1] ، تهدف هذه الحركة التي قادتها الكنيسة إلى السيطرة على الأتباع ، حتى لا يدينوا بالإسلام ، وحتى لا يشعروا بأن ثقافة المسلمين وحضارتهم ، أرقى وأنبل من ثقافة المسيحيين وحضارتهم ، خاصة عندما كانت الدولة الإسلامية في أو ج تقدّمها وقوتها . فلعلهم كانوا يمنّون النفس يومئذ بأن يغزوا بمؤلفاتهم الفكر الإسلامي ، وأن يتكرر ما وقع بين روما وأثينا . عندما غزت الثانية الأولى فكريا ، في حين أنّ الغزو الحربي كانت الغلبة فيه لروما على أثينا .

ولمّا بدأ نجم المسلمين الحضاري والسياسي في الأفول ، واستعاد الإسبان الأندلس والنرمان الجزر التي كانت تحت المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط ، أتّجه الملوك المنتصرون إلى تشجيع العلم والعلماء ، فأنشئت معاهد الدراسات العليا في أهم المدن الأوروبية ، وخاصة تلك التي

---

(١) م . س . ٩٨

كانت مهداً للحضارة الإسلامية في إسبانيا ، وفي بعض مدن حوض البحر الأبيض المتوسط . وازدادت هذه الحركة نموا عندما أدرك الأوروبيون أن أغلب الكتب اليونانية قد ضاع أصله ، وأنّه لا يمكن أخذه إلاّ من الترجمات العربية ، وقد تأكدت هذه القناعة لمّا أدرك العلماء الأوروبيون أن العلماء المسلمين ، هم حلقة مهمة وأساسية في بعث عصر النهضة الأوروبية .

لقد كان علماء عصر النهضة يسعون جادّين إلى استخدام التراث الإنساني ، لتمكين مجتماعتهم من التقدم والتطور ، والخروج نهائيا من عهد القرون الوسطى والركود الحضاري والثقافي . كانوا يدركون أنّ التراث الإنساني في وقتهم هو الذي تمثله الثقافة العربية . فتعلموا العربية ، ثم اليونانية ثم اللغات الشرقية للنفوذ إليه[1] . كما كانوا يدركون أنّ الإنتاج الشرقي المتصل بتراث الأقدمين كان أسمى من الأوروبي قطعا [2] .

إنّ هذه المرحلة من البناء الذي عرفته الحضارة الأوروبية ، قادتها إلى مرحلة موالية اتسمت بتقدم هذه الحضارة وبلوغها درجة من الإزدهار والانتشار جعلت أغلب المنتسبين إليها يهملون الأصول الأساسية التي كانت منطلقا لها .

بل إنّ بعضهم أراد أن يبيّن انفصال حضارتهم عن الحضارة الإسلامية ، فوصف الخلاف العميق الذي يفصل بين الثقافتين والحضارتين ، وصوّر العلوم الإسلامية تصويرا مشوّها ، حتى يظهر أنّها علوم سطحية عاطفية ، مبنية على الأنانية وقصر النظر ، وأن جانب الطرافة والقوة الذي يمكن أن يوجد بها هو في الحقيقة دخيل عليها ، ويعود إلى ما أخذته عن الحضارات القديمة الغربية والشرقية .

(١) J.L. Holphen L.Essor de I.Europe aux IX.... XIII siecles

(٢) نقلا عن المصدر السابق ص ١١٤ . كارل هينرس بيكر : تراث الأوائل في الشرق والغرب ، تعريب عبد الرحمن بدوي في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ٢٢ .

ولبلوغ هذه الغايات نشأ الإستشراق السياسي الذي تعاون مع الإستشراق الكنسي وانصهر النوعان في مدرسة واحدة عملت على التشكيك في الحضارة الإسلامية وفي العلوم الدينية على وجه الخصوص .

ومن أبرز أساتذة هذه المدرسة في القرن التاسع عشر الميلادي جولدتسيهر المجري الأصل اليهودي الديانة . فبعد دراسة تواصلت حتى سنة ١٨٦٩م ببودابست ارتحل إلى « برلين » « وليبتسك » للدراسة فتلمذ في الدراسات الشرقية على المستشرق « فليشر » ، وبعد الحصول على الدكتوراه الأولى والتدريس بجامعة بودابست ، أرسل في بعثة دراسية إلى الخارج قادته إلى المشرق العربي فأقام « بسوريا » ثم أقام مدة بمصر وحضر بعض دروس الإمام محمد عبده . ثم أصبح من ألمع المستشرقين وأغزرهم إنتاجا في العلوم الإسلامية والعربية .

الحديث النبوي في دراسات جولد تسيهر :

إلى جانب مباحثه في اللغة والتاريخ والفقه والقرآن الكريم ، اهتم جولد تسيهر بالحديث ورجاله فتناول بالدرس والتحليل حياة الأمام البخاري ومصنفاته وذلك ضمن دراسته التي كتبها باللغة الفرنسية سنتي ١٩١٥ م ، ١٩١٦ م . كما اتجهت عنايته إلى دراسة العناصر الدخيلة على الإسلام والواردة في الأحاديث النبوية وخاصة العناصر الأفلاطونية والغنوصية . وذلك ضمن بحثه المنشور بمجلة الأشوريات Z.A. (المجلد الثاني والعشرون سنة ١٩٠٩ م من ص ٣١٧ إلى ٣٤٤) [1] .

وأراد من خلال هذا البحث أن يظهر الأحاديث ذات الإتجاه الأفلاطوني أو الغنوصي مثل حديث : أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم

---

(١) عرب الدكتور عبد الرحمن بدوي هذا البحث في كتابه : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ٢١٨ وما بعدها .

قال له أدبر فأدبر . ثم قال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم عليّ منك . بك آخذ ، وبك أعطي . وبك أثيب وبك أعاقب [١] .

الدراسات الاسلامية :

كتب جولد تسيهر قبل هذا البحث كتابه الذي أصبح في دائرة الإستشراق منذ صدوره حتى الآن «إنجيلا مقدساً»[٢] يهتدي به أغلب المستشرقين ومن سار على طريقهتم ، وقد عنون له « بدراسات إسلامية » وهو بالألمانية Studien Muhammadanische: ، فظهر الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ م ويتحدّث فيه عن الوثنية والإسلام ، وعن الصراع الذي استمرّ قائما بين الوثنية العربية الجاهلية ، وبين التّوجهات الإسلامية . فالروح الوثنية الجاهلية تسعى إلى البروز في أشكال جديدة ، وتحت شعارات مختلفة ، ولكنها تدعو في جوهرها إلى التمييز العنصري الذي يرفع من مكانة العرب ويجعلهم أسيادا على غيرهم من الأمم التي اعتنقت الإسلام ، وسعت إلى الإنصهار فيه . لقد استمر الصراع بين العنصرية العربية ، والمساواة الإسلامية ، إلى أن انتصرت الثّانية على الأولى ، ولكن سرعان ما قام صراع آخر ، دار هذه المرة بين العنصر العربي ، والعنصر الفارسي ، وللمرة الثّانية تنهزم القوى العربية ، ولكنّها استطاعت هذه المرة أن تنتصر في اللغة ، والشعر ، والفقه إلى حدّ ما .

وبعد أن ألم جولد تسيهر بدراسة الجوانب الإجتماعية ، والقوى التي تصارعت في المجتمع الإسلامي ، وخاصّة في القرون الأولى ، وصل إلى الجزء الثاني الذي ستهتم به هذه الرسالة ، فتسلط عليه النقد ا موضوعي وتنقله إلى العربية . وهذا هو الجزء الذي تصدق عليه ملاحظة الدكتور الأعظمي ، فهو الذي أصبح مرجعا في دراسة الحديث ، فأغلب المستشرقين ، متشبثون

(١) أنظر نقد هذا الحديث في المنار المنيف لابن قيم الجوزية وفي كتابنا مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية ط الدار العربية للكتاب ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) د. محمد مصطفى الأعظمي : دراسات في الحديث النبوي المقدمة ١/ي .

بما ورد فيه ولا يقبلون أن توجّه إليه النّقائص ، أو أن يقال لصاحبه أخطأت ، أو أن ينطلق منه لإبراز خطأ الاستشراق في الدراسات الإسلامية عموما ، والمتصلة بالحديث خصوصا . وقد نقل الدكتور مصطفى السباعي عينة من تعصب بعض المستشرقين لآراء جولد تسيهر ، فقد اجتمع في جامعة « ليدن » بهولندا بالمستشرق اليهودي « شاخت » فذكر له بعض أخطاء جولد تسيهر وبين له تحريفه لبعض النصوص فلم يقبل تلك الملاحظات وأراد تبريرها وتعليلها بطريقة لا تمت إلى المنهج العلمي بصلة . لقد أصبحت دراسات «جولدتسيهر» في الأحاديث النبوية من المسلمات عند بعض الدارسين ، وخاصة المستشرقين والذين تتلمذوا عليهم ، وأحاطوهم بهالة من الإكبار تحوّلت أحياناً إلى نوع من أنواع العصمة[1] .

وإلى جانب الذين تقبلوا دراسات جولد تسيهر في الحديث ، بنوع من التسليم الذي يتنافى أحيانا وقواعد البحث العلمي ، نجد فريقا آخر تطرّف ، وأراد أن ينكر كل فضيلة لهذه الدراسات ، ولعله تتبع كل كلمة قالها « جولدتسيهر » ، ورأى أن وراءها عداء باطناً أو سافراً ، فكان هدفهم الوحيد ، أن يحذّروا الناس من هذه الدراسات ، وأن يقيموا حولها موانع تحول دونها ، ودون أفكار الباحثين والدارسين ، وخاصة الشباب منهم .

وبين هؤلاء وأولئك لا بدّ من أن يوجد وسط يسعى إلى الإستفادة من هذه الدراسات ، فيبرز حسناتها ، وجوانب القوة فيها ، ويُنبه إلى السلبيات والأخطاء ، لا ليهوّلها أو ليجعل منها عناصر اتهام ، وإنما ليتبين الطريقة والمناهج والأهداف التي اتبعها المستشرقون فوقعوا في الخطأ ، وأوقعوا غيرهم فيه . وليقارن عملهم بالذي أنجزه السلف الصالح ، وليرسم بعد ذلك

---

(١) د. مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ٢٣ وما بعدها

الـطريق ، والمنـاهـج ، والأهـداف التي تمكّن البحث العلمي في القـرن الخامس عشر الهجري من الإلمام بقضايا الحديث إلماما يساعد على انتشار أقـوال الـرسول صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله وتقريراته ، بطريقة علمية ، وفعّالة تأخذ بعين الاعتبار التقدم الحضاري والاجتماعي والتقني الذي حققته الإنسانية .

إن دراسات جولد تسيهر في الأحاديث ثرية بالمراجع ، متصلة بكثير من جوانب الحضـارة الإسلامية ، جديرة بأن تكون مجالا للبحث ، خاصّة وأنّ أغلب الذين كتبوا في الحديث النبوي قد رجعوا إليها ، وأحالوا على ما ورد فيهـا . فهي منتشرة في كتبنا ، ولكن لا أحد من أبناء العربية نقلها إلى لغة الضاد أو خصها بدراسة نقدية تحليلية .

لقـد أراد الـدكتـور مصطفى السباعي أن يقوم بهذا العمل بالتعاون مع الـدكتـور حسن عبـد القادر ، ولكن الظروف حالت دونه ودون تحقيق رغبته تلك ، فحرمت المكتبة العربية من هذه الدراسات ، وهي التي كانت أولى بها من غيرهـا . لقد ترجمت هذه الدراسات إلى الإنكليزية ، وإلى الفرنسية ، وصاحب الترجمة الفرنسية هو « ليون بيرشيه Leon Bercher (1889 - 1955) الذي كان مديرا لمعهد الدراسات العليا بتونس (١٩٥٠) ، والذي له بعض التأليف المتصلة بالدراسات الإسلامية : كبحثه حول الكفر والتجديف والمعصية في الإسـلام . (١٩٢٣) وقـانـون العقـوبات في الإسلام . (المجلة الجزائرية ١٩٢٧) . والـرسـالـة لابن أبي زيد القيراواني : متنـا وتـرجمة . (الجزائر ١٩٤٥) ، كمـا اهتم بكتاب علي عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم ، فنقله إلى الفـرنسية (١٩٣٣ - ١٩٣٤) وحلل فتوى كبار علماء الأزهر حوله (١٩٣٥) ، وعند ترجمته لدراسات جولد تسيهر في السنّة لم يقدم Bercher أي تعليق عليها ، فقد اكتفى بنقل نصها وقدمه إلى قراء الفرنسية تحت عنوان "Etudes sur la Tradition Islamique" أي دراسات في السنة الإسلامية ، وإذا ما

أخـذنـا بعين الإعتبـار محتـوى هذه الـدراسـات فإن العنوان « دراسات في الأحاديث النبوية» يصبح أقرب إلى المحتوى ، ذلك أنّ هذه الدراسات تشمل ثمانية فصول ، اهتم الأول بتعريف الحديث والسنة ، وميّز بين المصطلحين ، وسعى إلى إبـراز جوانب الاختـلاف بين الحـدّين ، وتعرض هنا إلى المتن والسند ، ونشأة المصطلحين وما يمكن استنتاجه من استعمال المحدثين لكلمة متن في قضية كتـابـة الأحـاديث ، أمـا الفصل الثاني فقد خصصه للجانب السياسي الذي أثر في الأحاديث فاهتم بالحكم الأموي والعباسي ، وبيّن البون الشـاسع الذي يفصل بينهما . وسعى إلى التأكيد على الهزيمة التي لحقت العنصـر العـربي بقيام الـدولـة العبـاسية التي وصفها بأنّها كانت أقرب إلى الإسلام ، بل إنّه ذكر أن الخلفاء العباسيين قد أحييوا الإسلام من جديد . إن هذه التقلبـات السياسية ستؤثـر على الأحاديث ، وستجعلها تتضخم وتكوّن ترسانة من الموضوعات التي شارك في قيامها السياسيون والعلماء ، وأصحاب الفرق وغيرهم . ومن هنا انتقل إلى الفصل الثالث الذي خصصه للصراع بين الفرق الإسلامية الذي لم يزد عدد الأحاديث إلا تضخّما .

ثم عقد الفصل الرابع للحديث عن مقاومة الأحاديث الموضوعة ، وهي المقاومة التي ساهمت في تضخيم عدد من الموضوعات ، ذلك أن الكذب قد وقعت مقاومته بالكذب ، وقد نتج عن هذه الحالة أن أصبحت الأحاديث مدعاة للتندّر وللعبث رغم أن البعض منها قد استخدم لبناء الحضارة وللتعليم . ودرس جولد تسيهر هذه القضية في الفصل الخامس . أما الفصل السادس فاعتنى فيه بالـرحلة في طلب الحـديث ، وما نتج عنها من موضوعات وتحريف . وفي الفصل السابع اهتم بكتابة الأحاديث والمذاهب المختلفة التي تكونت حول هذه القضية ، وأخيرا تحدث في الفصل الثامن وهو أطول فصول الدراسات عن كتب الحديث وعن الثقافة التي نشأت متصلة بالأحاديث النبوية ، فسعى إلى إبـراز القضـايا والمنـاهج التي أثارها واتبعها مالك والشيخان وأصحاب المسانيد والسنن وغيرهم من المصنفين .

مصادره :

اعتمد جولد تسيهر مصادر كثيرة ومتنوعة ، وعاد إلى مخطوطات كثيرة حققها العلماء بعد ظهور دراسته ، وأخرجوها للناس ويمكن أن تصنف المخطوطات والكتب المعتمدة إلى أصناف :

الصنف الأول :

ويتكون من كتب تتصل اتصالا وثيقا بالحديث وعلومه ، كصحيحي البخاري ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود ، وقد اعتمد هذه الكتب اعتمادا مطردا ، فمنها استمد أغلب الأحاديث التي دعم بها فرضياته واستنباطه . واستخدم بدرجة أقل سنن ابن ماجة والنسائي ، ومصابيح السنة . وعاد في بعض القضايا المتصلة بعلوم الحديث دراية إلى تقريب النووي ، وإلى كتاب الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي .

أما بالنسبة لكتب الصحابة فقد اعتمد كتاب الإصابة في تمييز الصحابة وكان يعود في الغالب إلى القسم الرابع من تقسيم ابن حجر للصحابة أي إلى أولئك الذين ذكرهم ابن حجر ليبين أنهم محسوبون من الصحابة دون أن يكونوا منهم ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه اعتمد على كتب ظنها مصادر في الحديث ، رواية ودراية ، كحياة الحيوان للدميري وروض الرياحين لليافعي .

الصنف الثاني :

استمد جولد تسيهر معلوماته المتصلة بتاريخ الأحداث التي وقعت بالمجتمع الإسلامي من كتاب مروج الذهب للمسعودي ومن تاريخ الطبري ومن الأخبار الطوال للدينوري وكتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن وتاريخ الخلفاء للسيوطي . كما استقى معلوماته المتصلة بأخبار المدن والأمصار من كتابي البلدان لياقوت الحموي وفتوح البلدان للبلاذري .

الصنف الثالث : كتب الأدب :

كان كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أهمّ مرجع من المراجع التي عاد إليها جولد تسيهر ، وهو يبحث قضايا الحديث النبوي ، فلا تخلو من الإحالة عليه إلّا صفحات قليلة ، وتأتي بعده مجموعة من الكتب الأدبية كدواوين شعر الجاهليين ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب ، وزهر الآداب ، والبيان والتبيين ، والحيوان ، والكامل في اللغة والأدب ، والشعر والشعراء ، ويتيمة الدهر ، ومجمع الأمثال .

لقد بحث جولد تسيهر في هذه الكتب عن الأحاديث وأخبار المحدثين ، وانطلق منها ليدعم ما ذهب إليه انطلاق الواثق بأخبارها ، المؤمن بأن ما جاء فيها قد أقرّه المحدثون ، ولم تكن لهم منه مواقف محذرة إذا جانب الحقيقة .

الصنف الرابع : كتب الأقاصيص والملح :

لم يتردد جولد تسيهر في الرجوع إلى كتب وضعها أصحابها للترفيه عن الملوك وعن العامة ، وليكسبوا بها شهرة في الأوساط التي استبدلت التهجد وقيام الليل ، بالأسمار ورواية الأشعار ، والسماع إلى المغنيين والمغنيات . كما أنه لم يستنكف من الإعتماد على كتب جمع فيها أصحابها أشعارا للسخرية والاستهزاء من هذا أو ذاك ، فهو يحيل على كتب ألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة ، وسيرة سيف ، وكتاب هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف .

هذه أهمّ المراجع التي اعتمدها جولد تسيهر وهو يدرس القضايا المتصلة بالأحاديث النبوية ، وهي مصادر متنوعة فيها الغث والسمين . فالرجوع إلى كتب الحديث رواية ودراية لم تخل منه دراسات جولد تسيهر ، ولكن الواجب كان يدعو إلى التعمق ، وذلك بالعودة إلى شروح هذه الكتب ، وما أثير حولها من دراسات ونقود . فموطأ مالك كان مصدرا لثروة علمية وثقافية بدأت تظهر

وتنمو منذ القرن الثالث الهجري ، فلماذا لم يعد جولد تسعير لما أنتجه أمثال ابن عبد البر والباجي والسيوطي وغيرهم لإبراز خصائص هذا الكتاب ، وما قيل فيه والحوار العلمي الذي تواصل بين العلماء حول شكله ومضمونه ، وأحاديثه بمختلف درجاتها ، وما تولد عنه من قضايا تهمّ الإجماع وعمل أهل المدينة وغيرهما من الأصول التشريعية التي ستثري الدراسات في ميداني الحديث والفقه ، لقد رجع جولد تسيهر في مناسبات قليلة إلى شرح الزرقاني على الموطأ ، ولكنه لم يتعمق في استثمار ما ورد في هذا الشرح ، وما قيل في الموطأ يمكن أن يقال في صحيحي البخاري ومسلم . لقد كانت طبيعة الموضوع تحتم على جولد تسهير أن يلمّ إلماماً تامّاً بما أنتجه المحدثون والفقهاء والمتكلمون حتى يفوق من حيث الكم والنوع ما ذكرته المصادر التاريخية واللغوية . فهذه الأخيرة ضرورية لفهم بعض الجوانب التاريخية واللغوية والبلاغية الموجودة بالحديث ، وبالكتب التي دونته ، والمصادر التي بحثت في القضايا التي أثيرت حوله ، ولكنها لا يمكن أن تقدّم على مصادره الأساسية التي نشأت لتبحث في الرواية والدراية ، ولتستنبط الأحكام ، ولتبين أسباب الخلاف بين بعض الروايات ، ولتحذر الناس من السلبيات التي كان الهوى والأنانية وحب الإنتقام من أهم الدوافع التي حركت أصحابها .

إن البحث في الأحاديث النبوية لا يمكن أن يعتمد على كتاب الأغاني لأن صاحبه لم يكن مختصا في الحديث ، ولا عارفا بفنونه ، ولا ساعيا إلى إبراز قضاياه ، وحلّ مشكلاته ، لقد كان هدفه ذكر الأشعار ، ونقل الطرف والملح . فإذا ما أورد حديثا ، أو أشار إلى محدّث فإنه يفعل ذلك عرضا ، ذلك أن الحديث لم يكن غريبا عن المجتمع الذي عاش فيه أبو الفرج .

فهل يصح لنا اليوم أن نعتمد في دراسة الطب على قصة بوليسية كان بعض أبطالها على تصال ببعض الأطباء ؟ أنقدّم لطلبة الطب ما ورد في تلكم القصة ، على أنّه معلومات طبية لا يتطرق الشكّ إليها من قريب أو بعيد ؟ إن

ما قام به جولـدتسيهر يشبه عملا من هذا القبيل إلى حدٍّ بعيد ، فهو يستثمر بعض الأخبار المنتثرة في الأغاني أو في حياة الحيوان للدميري ، أو في كتب الجاحظ ليصدر أحكاما على الأحاديث النبوية .

ولم يكتف جولد تسيهر بهذا النوع من الخلط بل تجاوزه ، فاستقى أخباره من مصادر لا تمت إلى الحديث بصلة ، بل هي لا تصلح لتكون مصدرا في المباحث الفكرية ، وحتى تكون للقاريء فكرة عن بعض ما ورد في هذا النوع من المصادر التي اعتمدها جولد تسيهر ، وهو يتناول الأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية أقدم بعض القضايا التي أثارها أمثال أبي شادوف في قصيدته التي شرحها من نعت بالعلامة الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد ابن خضر الشربيني : قال صاحب القصيدة :

أقاربك العقارب فاجتنبهم ... ولا تركن إلى عمّ وخال
فكم عمّ أتاك الغم منه ... وكم خال من الخيرات خال

وقد علّق الشارح على هذه القالات معجبا بما ورد فيها فقال : « أنظر إلى هذا الشاعر اللبيب كيف أتى بالعم والخال ووصف الأول بالغم واستخدم الثاني في كونه خاليا من الخيرات [1] .

إنّ هذا الكتاب وأمثاله بعيد كلّ البعد عن الأحاديث النبوية ، وعن التوجيهات الإسلامية . لقد كان بوسع جولد تسيهر أن يرجع إليه لو كان محور بحثه في انحطاط الشعر ومظاهره ، أو في الصنعة والتصنيع في الشعر العربي ، أو في انحراف بعض الشعراء وغيرهم عن التوجيهات الإسلامية ، أمّا أن يكون مرجعا في دراسات تريد أن تقول القول الفصل في قضايا الحديث ، فهذا لا يجوز أبدا .

---

(١) كتاب هز القحوف في شرح أبي شادوف .

ورغم هذه السلبيات المتصلة باختيار بعض الكتب ، فإنّ دراسات «جولدتسيهر» ، تبقى ثرية بالنسبة لتنوع مصادرها ولتنبيه القاريء إلى موطن هذا الحديث أو ذاك ، أو هذه الحادثة أو تلك . فهل كان استعمال هذه المصادر موضوعيا ، وهل استقرأ المؤلف نصوصها استقراء علميا مكنه من الوصول إلى نتائج يعتد بها ، ويعسر نقدها أو نسبة الخطأ إليها ؟

منهج جولد تسيهر :

قال الدكتور عبد الرحمن بدوي : كان جولد تسيهر ينهج في أبحاثه منهجا استدلالياً ، لا استقرائياً ، فكان يقبل على النصوص ، وفي عقله جهاز من المقولات والصّور الإجمالية يحاول تطبيقها على هذه النصوص والتوفيق بينها وبين ما يوحى به ظاهر النص حتى يتلاءم وهذه الصور الإجمالية وحتى يدخل في نطاق تلك المقولات [(١)] .

والممارس لدراسات جولد تسيهر في الحديث يقف على أمثلة كبيرة لما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي وتتضح لديه الافتراضات التي انطلق منها صاحبها ليبين تفكك المجتمع الإسلامي منذ عهد مبكر أي منذ قيام الدولة الأموية ولينفي الحركة العلمية التي شهدها هذا القرن والمتمثلة في انتشار الصحابة رضي الله عنهم والعلماء في الأمصار لتعليم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، واللغة العربية . وتتبع هذه الدراسة ونقدها نقداً علميا كان موضوعاً لرسالتي الجامعية التي نوقشت بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس في رمضان المعظم من سنة ١٤٠٤ هـ .

واكتفى في هذا البحث بنقد افتراض جولد تسيهر المتعلق بالحياة الدينية طيلة القرن الأول .

---

(١) عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ٣١١

طريقة الاسلام في الدعوة إلى الله :

إنّ دراسة الحالة الدينية التي سادت البلدان الإسلامية طيلة القرن الأول ، لا تكون موضوعية ، إلاّ إذا أخذت بعين الإعتبار كثيراً من المعطيات ، وخاصة تلك التي ترجع إلى طبيعة الإسلام ، وأهدافه ، وطريقته في الدعوة إلى الله . فالإسلام بما اشتمل عليه من آيات وأدلة ، وبما بناه من كليّات وأركان ، وبما تركه للعقل والتجربة من ميادين ، وبما قصّه من قصص ، وبما ضربه من أمثال ، وهو دين عقيدة وعلم وعمل : فلا عجب إذا قلنا بأنه قد طلب من الإنسان أن يلم بمقدار أدنى من المعرفة الدينية في حين ترك التبحر والتعمق والاجتهاد بعهدة كلّ من أراد الله به خيراً ، فمكّنه من التفقه في الدين أو بلوغ منزلة العلماء الذين جعلهم الله تعالى ورثة الأنبياء ، ونبراسا يهتدي به المهتدون ويستضيء بنوره العامة .

لم يأخذ جولد تسيهر بهذه المعطيات ، فادعى في دراساته أن البلاد الإسلامية في القرن الأول كانت بعيدة في سلوكها . وفي قوانينها عن تعاليم الإسلام . ولم يستثن من ذلك إلاّ المدينة المنورة ، واستشهد على رأيه بأن المحاربين الذين نشروا الإسلام ، لم يكن لهم من الأهداف إلاّ الحصول على المتاع والأراضي واستعمار البلدان المفتوحة ، والتسلط على خيرات الأمم المغلوبة . إن هؤلاء المحاربين هم في نظره وبمقياسه ، لا يختلفون في شيء عن المستعمرين الذين استعبدوا الشعوب في العصور الحديثة ، فسلبوها خيراتها ، وأرهقوها بنمط عيشهم ، وضنّوا عليها بتقنياتهم واكتشافاتهم واختراعاتهم ، وأرادوا أن تبقى خاضعة لسلطانهم أبد الآبدين ، وما درس «جولدتسيهر» شيئا من سيرة الفاتحين المسلمين الذين كانت غايتهم الأساسية نشر دين الله ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، لقد أمرهم الله عزّ وجل بأن

يحاربوا في سبيله الذين يحاربونهم . فهم لا يقاتلون في سبيل الحصول على الأراضي أو المعادن أو المواد الأولية . وهم لا يحاربون إلا الذين يمنعونهم من نشر العقيدة ومقاومة الفساد بالتي هي أحسن ، أمّا الذين يقبلون الجدل ، ويتركون المسلمين يدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا أحد يحاربهم ، ولا أحد يعتدي على معتقدهم ، إن هم آمنوا بالله ربا .

إن القرن الأول الذي قال عنه جولدتسيهر إنه يهم دراساته كان أقرب القرون إلى التمسك بتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرغم السلبيات التي نشأت أثناءه من جراء الفتن الداخلية ، إلّا أنه يبقى خير القرون . فصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانوا يراقبون الأمور ، ويصدعون بكلمة الحق ، ويجهرون بما سمعوه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما شاهدوه من أفعاله وتقرارته . فهذا أبو الدرداء يسمع أن معاوية باع مرة سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها فيقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك . ولكنّ معاوية يناقشه ويقول : « ما أرى بهذا بأسا » فينطلق لسان أبي الدرداء معاتبا : « من يعذرني من معاوية ، أخبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبرني عن رأيه [1] .

فمعاوية رضي الله عنه ، لم يسمع ما سمع أبو الدرداء ، ولم يشهد ما شهده فظنّ أنه باستطاعته أن يختار طريقة بيعه وتقدير ثمن بضاعته ، وأن البيع المشروع ينحصر في الرضا والقبول . ولكنّ أبا الدرداء أعلمه بأن ذلك ممنوع ، وأكد له أن الإجتهاد الفردي ليس بحجة إذا عارض الخبر الصحيح المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهل قارن جولد تسيهر بين ما ورد في هذا النص ونظائره ، وبين ما وجهه لجيش المسلمين من تهم . أتساءل وهو يستقريء ما دار بين بعض الصحابة

(١) الموطأ : كتاب البيوع : بيع الذهب بالفضة تبرا وعينا ح = ٦ .

من مناظرات وحوار عن موقف هؤلاء لو كان جنود عصرهم مستعمرين ظالمن ، لا تهمهم إلّا الانتصارات المادية . لقد كان همّ جولد تسيهر أن يقدم المحاربين الذين خرجوا من المدينة جاهلين جهلا يكاد يكون تاما بفروع الأعمال الدينية [1] . وبعيدين عن التوجيهات الإسلامية . ولكنّه نسي أنّ الذين اتهمهم بالجهل والظلم كانت لهم قيادة تكوّن أفرادها في المدرسة النبوية .

فالباحث الأمين لا ينكر وقوع بعض التجاوزات ، ولا يرفض أن يكون بعض المحاربين قد استهواهم الدينار والدرهم ، ولكن أيجوز تعميم الشاذ ، ونفي العام . إن العودة إلى النصوص المعتبرة التي تحدثت عن المحاربين الذين خرجوا في حروب مشروعة ، تظهر أن نشر تعاليم الإسلام كان هدفهم الأساسي ، فكلما حلوا بمصر من الأمصار ، أو فتحوا مدينة من المدن ، سارعوا بتعليم من أسلم من أهلها أصول الدين ، كالشهادتين ، والصلاة ، والصوم، والزكاة ، والحج ، دون أن يهملوا الجانب السلوكي. الذي جاء به الإسلام .

فسعيهم هذا قد جعلهم القدوة لأهالي البلدان المفتوحة ، فقد ذكر ابن حجر الهيثمي « أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام ، قالوا : والله لهؤلاء خيرٌ مِنَ الحواريّين [1] .

أثر الصحابة رضي الله عنهم في الأمصار :

وهكذا يتضح أن ما ادعاه جولد تسيهر من أن المحاربين المسلمين لم يعتنوا بنشر الدين ، لا يستقيم إذا استقرئت النصوص المعتبرة ، وأن مقابله هو الصحيح .

---

(١) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة : ٣٧ .

(٢) ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة : ٢١٠ .

لقد أوقع هذا الإدعاء صاحبه في خطأ آخر ، تمثّل هذه المرة في تأكيده على أن الصحابة الذين استقروا بالأمصار المفتوحة كان تأثيرهم محدودا . إن مثل هذا الخطأ كان سهل التقويم ، لو أن صاحبه تساءل عن مقداره من الصحة ، ولو أنه اطلع على بعض الأخبار التاريخية المعتبرة . لقد اشتهر عند المسلمين أن ابن مسعود رضي الله عنه ، لما كان بالعراق ، وأتاه الأمر من الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، بالعودة إلى المدينة نتيجة خلافاته مع بني أمية التف حوله أهل العراق ، وطلبوا منه أن يبقى بينهم .

فهذه الدعوة ، وهذا الإلتفاف ما كانا ليقعا لو لم يكن لهذا الصحابي الجليل إشعاع في المصر الذي استقر به . وإلى جانب هذا الخبر أكدت كثير من المصادر الفقهية والعقدية ، أنّ ما استقر في هذا المصر أو ذلك ، من فهم النصوص وتفاعل الأحداث هو في الحقيقة راجع إلى فتاوى أحد الصحابة التي أخذها عنه أهل ذلك المصر ، وتأثروا بعلمه وسلوكه ومنهجه في استنباط الأحكام .

لقد أكدت الأخبار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ما منع الصحابة من الخروج من المدينة ، إلّا خوفا من أن يفتتن الناس بهم . فالصحابي حيثما حل ، تجمّع حوله المسلمون ، وطلبوا منه التوجيه والنصح ، وألقوا عليه الأسئلة .

إن أثر الصحابة كان عميقا في الجيل الذي عاصرهم ، والذي أتى بعدهم ، أي طيلة القرن الأول للهجرة . ولم يقترن هذا التأثير بترك الناس أعمالهم اليومية ، فذاك أمر لم يقع حتى في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . فالصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يباشرون أعمالهم ، فيخرجون للتجارة والفلاحة ، وركوب البحر ولا يلتحقون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، إلّا إذا كانت لهم مشاكل يريدون حلها ، أو إذا كان لهم متسع من

الوقت . فطريقة التعليم في أوّل الإسلام لم تكن خاضعة لوقت محدد ، أو لبرنامج مسطر ، ولا لحضور وجوبي . لقد كان شعار التعلم في ذلك العصر ، تبليغ الشاهد الغائب . ما سمع وما رأى . وطلب العلم من المهد إلى اللحد ، كما كانت ميزته الواقعية . فهو ينطلق من الأحداث التي يعيشها المجتمع ، فلا افتراضات ولا احتمالات . لقد جاء الإسلام بالكليات والأصول ، أما الجزئيات والتفاصيل وأحكام الحوادث الناشئة ، فقد ترك العقل المحمي بالنصوص والتوجيهات يتعامل معها ، ويجد لها ما تستحقه من أحكام . فهل نطالب بعد ذلك الصحابة الذين استقروا بمصر من الأمصار أن يكونوا موسوعات ؟ وهل نطالب المسلمين الجدد بأن يلموا بكل ما ورد في القرآن والسنة . إن هذا الإلمام يتطلب قرونا من البحث والتمحيص ، كما يستدعي ظهور أحداث متنوعة ومتداخلة ، فينبري لها العقل ويقلبها من جميع جوانبها ، ويبحث في القرآن ، والسنة ، وما أجمع عليه الصحابة ، علّه يجد هناك الحكم المناسب . إنّ هذا الجانب يمثل حقا الحركية التي رعاها الإسلام ، ويتصل اتصالا وثيقا بالجوانب المتطورة في التشريع . فالآراء قد تختلف ، وهي تدرس هذه الجوانب ، والجدل قد ينشأ بين المجتهدين .

إن الاختلاف هنا لا ضرر منه إذا كان رائد الجميع فهم النصوص ، وتطبيق الأحكام بمبلغ الإجتهاد ، والبعد عن الهوى . لقد سادت هذه الحركية القرن الأول الهجري ، وجعلت المعتنين بالفقه الإسلامي يؤكدون أن هذا القرن لم يكن سلبيا ، فالفقهاء يبحثون في الأمور العملية ، ويسعون إلى أن تكون حياتهم شبيهة بتلك التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أكد هذا المعنى جولد تسيهر ، ونظر إليه بمنظاره الخاص فعاب على المسلمين بحثهم عن أبسط الجزئيات المتصلة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أمـا « سخـاو » فقـد أكد على أن الفقه العملي قد نال حظه في القرن الأول (١) . فعلى يد من جاءتـه هذه الحـظوة ؟ لا شك أن أسـاسها القرآن والحديث وطريقها أخبار الصحابة . وإجماعهم وفتاويهم .

دور المسجد في الاسلام :

لجولدتسيهر طريقة خاصة في استقراء النصوص ، فهو يسعى مثلا إلى التأكيد على أن المسلمين الفاتحين لم يكونوا يهتمون بنشر تعاليم الدين ، وأن هدفهم الأول هو بسط النفوذ العربي والتسلّط على الأراضي والأموال ، وإذا ما ظهرت أمامه نصوص موثقة تذكر أنّ المسلمين كانوا يسارعون إلى بناء المساجد كلّما حلوا بمكان ، فإنه يسعى إلى البحث عن تفسير لظاهرة بناء المساجد يسلب المسلمين كل الفضائل ويثقلهم بالتّهم . فهذا البناء حسب تصوره ، مرتبط بدوافع الغزو والتسلط . إنّ جولدتسيهر لم يتساءل عن دور المسجد في الإسـلام ، ولم يطلع على محكم التنزيل الذي يجعل من هذه المؤسسات أمكنة يذكر فيها اسم الله . قال تعالى : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَـا آسْمُـهُ »(١) . لم يستقـريء هذه الآية ليستنتج أن المسجد هو مكان العبادة ، وأن هذه الأخيرة لا تكون إلا بالعلم الذي لا بدّ من أن يترتب عليه العمل . لم يتعرض جولد تسيهر إلى الأخبار التي تؤكد أن المسجد لم يكن رمزا للإستعمار، وإنما موطنا لعبادة الله ، والتدبر في آياته ، ومعرفة أحاديث الـرسـول صلى الله عليه وسلم وسيرته وشمائله ، وهو إلى جانب ذلك قبلة الأفـراد والجمـاعـات يؤمونه للعبادات والمعاملات ، فهو يستقبل أنماطا من الرواد ، وحّدت بينهم كلمة لا إله إلاّ الله ، وجمع بين آمالهم وميولهم سلوك إسـلامي يرفض الإستعمـار والأنـانية والعنصـرية في أي شكل قدمت . إن المسائل التي تثار في المسجد كثيرة ومتنوعة .

---

(١) محمد يوسف موسى : تاريخ الفقه الإسلامي ١ /٢٢ .
(٢) النـــور : ٣٦ .

وقد تتكرر المسألة الواحدة المرات المتعددة في المناسبات المتقاربة ، أو المتباعدة ، وقد يصدر السؤال الواحد داخل المسجد مرّات ومرات . فهل يجوز لباحث أن يقرر أن ركنا من أركان الإسلام لم يكن معروفا في القرن الثاني لمجرد أن أحدهم قد سأل عنه في مسجد مصره ؟ ألا يجوز في عصرنا الحاضر أن يدخل شخص الإسلام ، ثم يسأل مثلا إمام جامع الزيتونة المعمور عن كيفية صلاة المغرب أو عن عبادة من العبادات ؟ ألا يكون من التمحل على العلم أن ينطلق أحدهم من سؤال هذا الداخل في الإسلام حديثا ، ليؤكد أنّ المسلمين في « تونس » يجهلون في أوائل القرن الخامس عشر أركان الدين ؟ لم يضع جولد تسيهر لنفسه هذه الأسئلة ، وهو ينقل عن الدينوري نقلا لا يخلو من تحريف خبر بناء المساجد . لقد أكد في نقله هذا أن بناء المساجد كان مرتبطا بالتسلط في حين أنّ ما ذكره صاحب الأخبار الطوال يفيد أن المسلمين كانوا إذا دخلوا أرضا سارعوا إلى بناء المسجد .

فلما ولى عمر رضي الله عنه عثمان بن أبي العاص أرض البحرين ، سار هذا الأخير ، ودخل أرض فارس « فنزل مكانا يسمى تَوج ، فصيره دار هجرة ، وبنى مسجدا جَامعاً (١) .

ولما نزل سعد بن أبي وقاص موضع الكوفة اليوم خطها خططا بين من كان معه وبنى لنفسه القصر والمسجد (٢) .

فهذان النصان لا يفيدان أن جيش المسلمين الفاتح كان يبني المساجد ، ثم لا يقيم فيها الصلوات ، ولا يعقد فيها دروس العلم .

فالموضوعية تفرض على الباحث أن يتشكك في كل خبر يدعي أن المسلمين كانوا يبنون المساجد دون أن يكونوا عارفين بما يقام فيها من

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال : ١٣٤ ، ط . مصر .
(٢) م . س : ١٢٥ .

عبادات ، وبما ينشر فيها من دعوة إلى الأخوة في الدين . إن المساجد تبنى لتعمـر ، ولتمكن طلاب العلم من التفقـه فيه من قبـل أولئـك الذين تعلموه قبلهم ، ومنّ الله عليهم ، بأن جعلهم أئمة يقتدي بهم غيرهم في الصلوات ، وفي غيرها من العبادات والمعاملات ، فهل يقبل بعد ذلك القول بأن الإمامة في الصلاة لم تكن لتستهوي العرب في العصر الأول للإسلام ؟ هل تساءل جولد تسيهر ، وهو يقرر انطلاقا من خبر قبيلة بني الأشهل العربية عن سبب مثل هذا الإعراض ، وعن شروط الإمام ؟ وهل اطلع على الأخبار التي تؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إمام المسلمين في صلواتهم طيلة البعثة ، وأنه لم يترك هذه الإمامة إلّا لأسباب قاهرة ؟ وهل بلغه من المصادر المعتبرة أن المسلمين استدلوا على خلافة أبي بكر الصديق ، بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم إيّاه بأن يؤم المسلمين أيام مرضه الأخير ؟

إن بني الأشهل كانوا يدركون أنّ الإمامة وظيفة دينية تسعد القائم بها وتبوئه درجة عليه ، فلا بد أن الواحد منهم كان يتمنى لنفسه أن يكون قائما بها ، ولكنهم كانوا إلى جانب ذلك على بينة من أنّ للإمامة شروطا لم تتوفر يومها إلّا في عبـد من عبيدهم ، فقـدّمـوه ليؤمهم ، وهم الأسياد الـذين أنار الإسلام قلوبهم ، فجعلهم يؤمنـون أنّ أكـرم النـاس عند الله أتقاهم ، وأن العبودية المادية ظرفية ، ولا تنقص من مكانة صاحبها عند الله . لقد سوى الإسلام بين العبد وسيّده في إمامة الصلاة ، فلم يجعل من الحرية شرطا من شروط الإمامة

فقـد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : يؤم القوم اقرأهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء ، فأعلمهم بالسنة (١) . فهذا الحديث يبيّن بما لا يدع مجالا للشك أن الإسلام لا يفرق بين العبد والسيد في التكليف وفي المساواة في ميدان القدرات الذهنية والجسدية .

---

(١) رواه الخمسة إلا البخاري واللفظ لمسلم : باب من أحق بالإمامة .

لعل جولد تسيهر لم يصح عنده هذا الحديث ، ولكن ألا اطلع على قوله عزّ وجل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١) ، ليتبين أن المعيار الذي يخضع له الإسلام الأشخاص إنما هو العمل والتقوى ، دون الحسب والنسب والمال . وما شابهها من أمور ، أم إنه لا يميز بين السنة والقرآن ، شأن أولئك العرب الذين نقل خبرهم عن صاحب الفهرست ليؤكد أن الواحد منهم كان يصعد المنبر ، ويلقي أبياتا من الشعر ظانا أنها آيات قرآنية .

التمييز بين القرآن وما سواه :

إن العرب في عصر النبوة كانوا يميزون تمييزا تاما بين القرآن وغيره من فنون القول وأساليب البلاغة . فقد كان بعضهم يتأمل القرآن ليعرف أشعر هو أم نثر . فهذا الوليد بن المغيرة يسمع آيات بيّنات ، فيرق قلبه رقّة لم تعرف فيه نحو الإسلام ، فخشي أبو جهل أن يصبأ ، فقال الوليد « والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني ، أعرف رجزها وقصيدها ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من ذلك » .

فإذا كان العرب في عصر النبوة لا يخلطون بين القرآن وما سواه من فنون القول ، فهل يعقل أن يقع هذا الخلط بعد جمع القرآن الكريم وترتيبه وانتشاره في كامل الجزيرة وفي خارجها ؟ لعل الذين وقعوا في الخلط هم أولئك الذين لا يعتد بحذقهم للعربية لغة وأدبا وشعرا ، ولعلهم كانوا من أنصاف المتعلمين الذين حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء . لقد أعتمد جولد تسيهر على أمثال هؤلاء في دراساته ليستنتج من أخبارهم أن القرن الأول الهجري كانت المعرفة الدينية فيه سطحية ، وأن إيمان أغلب أفراده كان ماديا .

وما كان جولد تسيهر ليصل إلى مثل هذا الاستنتاج لو اختار مصادره اختيارا

(١) الحجرات : ١٣ .

علميا وميز بين ما هو جدي وما هو هزلي وابتعد عن بعض الكتب ككتاب « ألف ليلة وليلة » ، ولو استقرأ النصوص استقراء علميا : لا يجعل الحرص على بناء المساجد مظهرا من مظاهر التسلط .

المعرفة الدينية :

إن المبدأ الذي دافع عنه جولد تسيهر والمتمثل في محدودية تطبيق الدين الإسلامي في القرن الأول ، لا تدعّمه لا النصوص ولا العقل لأنه بني على افتـراض يسعى إلى تصـوير ملك بني أمية على أنه ملك ظالم لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة خارجية .

فالخلفـاء الأمـويون حسب هذا الافتراض لا همّ لهم إلّا السيطرة على البلدان المفتوحة واستثمار الخيرات وتوطيد الملك .

وهذا القول فيه من التحمل الشيء الكثير فهو يهمل كل الجوانب الإيجابية في هذا الملك . ثمّ إن صاحبه لم يشر إلى أن عهد بني أمية قد شهد إعادة بناء الدولة الإسلامية ، بعد حروب داخلية ضارية . لقد ذكر بروكلمان أنّ معاوية رضي الله عنه قد أقام الدولة الإسلامية من جديد على الأسس التي وضعها عمر ، والتي تقوضت أثناء الحروب الأهلية[1] .

أليست هذه الأسس التي أضافها بروكلمان إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنـه ، هي التي وردت في القرآن والسنة . فإذا أعاد معاوية بناء الدولة الإسلامية على النمط الذي كانت عليه أيّام الفاروق عمر ، فهل من شك في أن مؤسس الدولة الأموية قد عمل على تطبيق التوجيهات الإسلامية في بناء مجتمع يستمد أسسه وتشريعاته من القرآن والسنة ؟ فلماذا لم يشر جولدتسيهر إلى هذا الجـانب ، ولمـاذا لم يأخـذ بعين الإعتبار الجانب المشرق للدولة الأمـوية : كسعيهـا إلى محـاربـة الخـارجين عن السلطة والحـاثين عـلى

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ١٢٤ .

الفوضى ، والداعين إلى تحطيم الإسلام تحت شعارات كثيرة كانت كالطعم لكثير من العاطفيين والناقمين الذين كان ميمون القداح وأمثاله صدى لأفكارهم ، فقد قال هذا الذي اتخذه بعضهم داعي الدعاة : إني أضيق بدين محمد ، وليس عندي جيش أحارب أهله به ، وليس لدي مال ، ولكني في الحيلة طويل الباع ، بحيث إذا لقيت عونا من أحد ، قلبت دين محمد رأسا على عقب »(١) . لماذا لم يشر جولد تسيهر إلى أن خلفاء بني أمية » وإن صيروا الملك عضوضا ، إلا أنهم كانوا في بعض مواقفهم يبحثون عن أحسن رجل فيهم ، يستطيع قيادة الأمة قيادة ترضي الله ورسوله . ألم ينزل سليمان ابن عبدالملك ، عند إرادة الفقيه رجاء بن حيوه ، فعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع عمر بن عبد العزيز » حتى قال فيه ابن سيرين « يرحم الله سليمان : أفتتح الخلافة بإحيائه الصلاة بمواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز(٢) .

لقد كان هدف جولد تسيهر يتمثل خاصة في التشهير ببني أمية ، وفي التأكيد على أن القرن الأول كان بقادته السياسيين وبعلمائه بعيدا كل البعد عن التوجيهات التي صدرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . فغايته كانت تتمثل في القول بأن الحضارة التي تنسب إلى الأسلام لم تبن على الأسس وعلى الأصول التي نزل بها جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم . إنّ هذه الحضارة بالنسبة إليه هي نتيجة حتمية لتفاعل المسلمين الفاتحين مع الأمم والشعوب والحضارات التي غزاها المسلمون حربيا ، فغزتهم ذهنيا وحضاريا . ولبلوغ هذه الغاية صوّر القرن الأول تصويرا بعيدا عن الإسلام . ولم يأخذ بعين الإعتبار أن أخبار بني أمية لم تكتب في عصرهم وأن جانباً مهماً منا يحتاج إلى قراءة جديدة في حين أن جانباً آخر قد ضاع .

---

(١) أبو المعالي الحسيني : بيان الأديان : ٤٠ ـ ٤١ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء : ٨٨ .

إلى جانب اتهام الخلفاء والأمراء بشتى التهم ، وسلبهم ما عرفوا به من فضائل ، فإن جولدتسيهر ، لم يتردد في اتهام علماء القرن الأول بالجهل والسلبية ، وإرضاء رجال السياسة . بل تطرف فقال إنّ الأمصار كانت خالية من العلماء الذين لم يوجدوا إلا بالمدينة ، وغابت عنه مواقف شجاعة لعلماء المسلمين الذين كانوا ينتقلون من مصر إلى آخر في سبيل الحصول على حديث من الأحاديث ، أو فهم مسألة من المسائل ، وهم إلى جانب اجتهادهم ، وبحثهم لا يخافون في الله لومة لائم . فقد نقل صاحب مروج الذهب أن ابن هبيرة قدم موفدا من قبل يزيد بن عبد الملك إلى الحسن بن أبي الحسن البصري ، وعامر بن شرحبيل الشعبي ، ومحمد بن سيرين . لقد تكلم ابن هبيرة يومئذ ، ووصف الخليفة بأوصاف ، منها أنه خليفة الله ، ثم أراد الأطلاع على مواقفهم ، فاتخذ كل من ابن سيرين والشعبي قولا فيه تقيه حسب المسعودي ، أما الحسن فأجاب : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله . إن الله يمنعك من يزيد . يا ابن هبيرة إني أحذرك أن تعصى الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله (١) .

إن الحسن بن أبي الحسن البصري ، قد انبرى يرشد ويوجه ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر صاحب السلطة ، لأنه يعلم أن العالم في الإسلام مطالب بأن يبذل الجهد في نشر الدين وتقويم السلوك ، لقد غاب عن جولد تسيهر أنّ المسلمين كانوا على اتفاق تام فيما يخص الأصول والأركان وانهم كانوا يسارعون إلى نشر ما يتصل بهما كلما فتحوا بلدا ، ويتأكد هذا الإتفاق من خلال النصوص التي تثبت أن المسلمين كانوا لا يتسامحون مع من يسعى إلى تغيير هذه الأصول ، وهذه الأركان . فتراهم يبينون تهافت كلامه ومعارضته لما اشتهر عندهم . فقد روى مالك عن محيرز أن رجلا من كنانة

(١) المسعودي : مروج الذهب : ٥/٤٥٨ .

يدعى المخدجي سمع رجلا بالشام يدعى أبا محمد يقول : إن الوتر واجب . قال المخدجي ، فرحت إلى عبادة بن الصامت ، فأخبرته فقال عبادة ، كذب أبو محمد . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خمس صلوات كتبهن الله على العباد . فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن ، كان له عند الله عهدا أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس عند الله عهد ، إن شاء عذّبه ، وإن شاء أدخله الجنة [1] . إن أمر الصلاة المفروضة من الكليات التي لا مجال للشك فيها أو الإختلاف ، لذلك نُعت من أراد إلحاق صلاة نافلة بالمفروضة ، بأنه كاذب ، أما إذا كان في الأمر مجال للإجتهاد والتطور ، أو أنه لا يصل من حيث الحكم إلى درجة الوجوب أو التحريم ، فإن التأخير في تعليمه للناس وترقب المناسبات جائز وهذا ما حصل في البصرة حول زكاة الفطر .

فابن عباس رضي الله عنهما لما خطب في آخر رمضان على منبر هذه المدينة وقال : أخرجوا صدقة صومكم ، لاحظ على وجوه المستمعين جهلا بهذه الفريضة ، فقال من ههنا من أهل المدينة ، قوموا إلى إخوانكم فعلموهم ، فإنهم لا يعلمون . فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الصدقة صاعا من تمر أو شعير ، أو نصف صاع قمح على كل حر أو مملوك ، ذكر أو أنثى ، صغيرٍ أو كبيرٍ [2] .

فهذا الخبر لا يفيد أن أهل البصرة كانوا يجهلون أصول الدين وقواعده ، جهلا تاما . فهو يبين أن ابن عباس قد أدرك ، وهو يخطب في الناس في أواخر رمضان ، أن المستمعين ، قد تتبادر إلى أذهانهم أسئلة حول زكاة الفطر ، تتصل بميقاتها وتقديرها ونوعها . لا شك أن ابن عباس كان عالما بما روي عن

---

(١) أبو داود : سنن : ١٤٢/١ .

(٢) أبو داود : سنن : ١٦٣/١ .

عمر من أن مقدارها صاع من شعير أو تمر ، كما كان عالما بأن عمر رضي الله عنه ، لما كثرت الحنطة في عهده ، جعل مقدارها نصف صاع حنطة مكان صاع مما كان معروفا . فلماذا حمل جولد تسيهر جهل أهل البصرة على أصل فريضة زكاة الفطر ولم يجعله عائدا إلى الوقت أو المقدار أو النوع ؟ إنّ التساؤل حول هذه الفروع أقرب إلى الواقع خاصة إذا اطلعنا على أوجه الخلاف التي كانت موجودة بين الصحابة حولها . لقد أراد جولد تسيهر من تأكيده على أن مسلمي البصرة كانوا يجهلون زكاة الفطر أن يبرز قصور المسلمين الفاتحين في تبليغ الدين ، حتى يستطيع بعد ذلك سلب جيل الصحابة فضلا خصّهم به ربهم فجعلهم هادين مهديّين . بلّغوا ما وصلهم من أحكام وتوجيهات ، وسعوا إلى تعليم غيرهم طرق البحث والإجتهاد ، ومعرفة الأصول والكليات ، والتفريق بينها وبين الجزئيات . فأسهموا بعملهم ذلك في انتشار الدين الحنيف إلى أن بلغ فترة العهد العباسي وغيرها من الفترات ، دون أن تصاب أصوله بالزيغ أو التحريف . فهل يستطيع باحث بعد ذلك الإدعاء بأن الحياة الدينية في العصر العباسي أنقى وأقرب إلى التوجيهات النبوية مما كان عليه الأمر أيّام بني أمية . وهل يجوز القول بأن الحياة الدينية في القرن الأول لم تُسْهِم في دفع العلماء إلى إثراء الثقافة الإسلامية انطلاقا من القرآن والسنة .

الحديث والفقه في العصر الأموي

التهيب في رواية الأحاديث :

سعى جولد تسيهر إلى أن يركز بحثه على أن السنة لم يكن لها أثر عند انتقال الرسسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ولذلك لم يذكر ما

نقله الرواة عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه »(١) . فلو نقد جولد تسيهر هذا الحديث متنا وسندا ، لأدرك أنه صحيح . فله شواهد في القرآن الكريم . قال الله تعالى في محكم التنزيل مخاطبا عباده المؤمنين : كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكونوا تَعْلَمُونَ . (البقرة ١٥١) .

إن المتدبر في هذه الآية يستنتج كما استنتج بعض المفسرين أنّ المقصود بالحكمة هي كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو تقرير ، أي سنته صلى الله عليه وسلم ، قال فخرالدين الرّازي عند تفسيره لهذه الآية : وأمّا الحكمة : فهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها ، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه : « الحكمة » هي سنة الرسول عليه الصلاة والسلام(٢) .

إن الحديث المتقدم يناقض الإفتراضات التي تبناها جولد تسيهر على أساس الصراع الذي تخيله قائما باستمرار بين بني أميّة ومن سماهم بالعلماء التقاة . والعجيب في الأمر أنه شجب أعمال بني أمية في حين أنه لم يحاسب من تكرّم عليهم بالعلم والتقوى ولم ينقدهم ولم يرمهم بالكذب ، ولم يناقش علماء الجرح والتعديل الذين عدّلوا منهم من عدلوا وجرحوا من جرحوا . لو تعمق جولدتسيهر وجمع كل النصوص المتصلة بنشأة السنة وتدوينها ، ولو درس علومها ومقاصدها لتأكد من أن الوضع في الحديث شذوذ ، وأن الأحاديث الصحيحة هي الأصل الذي بذل العلماء في سبيله مجهودا لتنقيته وتخليصه من الشوائب ، ذلك أنه لم يغب عنهم أن معطيات سياسية وتشريعية واجتماعية أسهمت في التمحل والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) مالك : الموطأ : كتاب القدر ج٣ .
(٢) الرازي : مفاتيح الغيب ٤/١٦١ .

وهكذا يتضح أن علماء القرن الأول كانوا يبحثون عن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخباره ليستنيروا بها في حياتهم ، وأنّهم كانوا يتحرون الصدق والأمانة ، ويتخذون من الاحتياطات ما يحميهم من ذنب أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه بأنه سيتبوأ مقعده من النار . فشروط عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب لقبول الأحاديث ، ليست وليدة تجريحهم لبعض الصحابة كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ومن تابعهم . وإنما هي تعبير صريح على أن الإحتياط في نقل أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، واجب ، وأنه يصل بالواحد من الصحابة إلى أن يفضل الإمساك عن الرواية خوفا من أن يقع في الزلل والخطأ . فقد نقل عن ابن الزبير أنه قال : قلت للزبير إني لا أسمعك تحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يحدّث فلان وفلان . قال : أما إني لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار[1] .

إن موقف الصحابة رضي الله عنهم ، من نقل الحديث حتّم على الرواة بعد ذلك أن يدركوا أنّهم مهما بذلوا من جهد ، فلن يستطيعوا الإلمام بكل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من أن تغيب عن الباحث بعض الأخبار ، ولا بد من أن يتشكك في بعض النقول . وهكذا يبقى الباب مفتوحا للبحث والنقد والتفسير والتأويل . فلماذا لم يربط جولد تسيهر ظهور بعض الأحاديث متأخرة عن الأخرى بهذا المبدأ . ولماذا لم يقر بأن الأحاديث التي عرفت في أواخر القرن الأول ، أو في القرون التالية كانت موجودة احتفظ بها بعض الرواة ، ولم تعرف إلا بعد اتساع دائرة البحث عن طريق الرحلات وغيرها من الوسائل التي اتبعها المحدثون . إنّ هذه الإمكانية لا يجوز للعلم أن ينكرها ، وإلا حكم على باب البحث بالإنسداد . وخضوع الأحاديث

(١) البخاري : كتاب العلم باب ٣٩ = أثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ح/٢ .

النبـوية لهذا المبدأ لا ينقص من مكانتها ، ولا يفتح باب الوضع ، ذلك أن المتطور هو طريقة البحث والتنقيب ، أما أصل الحديث ، فلا يخضع لهذا التطور . ثم لماذا ربط جولد تسيهر بين عداوة العلماء التقاة لبني أمية وبين ظهور الأحاديث الجديدة ، ولم يربط هذا الظهور بحاجيات المجتمع . فنحن نعلم أنّ البحث مهما كان ميدانه ، فإنه يستجيب لحاجيات قد تكون سياسية أو تشريعية أو مالية أو غيرها . فإذا سلمنا بأن حاجيات المجتمع العراقي مثلا تختلف عن حاجيات المجتمع الحجازي، فلماذا نرفض بعد ذلك أن تكون الأحاديث والسنن التي ستنتشر في الأول مختلفة عن التي ستنتشر في الثاني ؟ وهكـذا يتضـح أن الحكم على حديث بالـوضع لأنه لم ينتشر في مصر من الأمصـار أو لم يضمه كتاب من الكتب ، أو لم يخرجه إمام من الأئمة ، لا يمكن أن يكون موضوعياً ، فمعايير صحة الأحاديث لم تتجه هذا الإتجاه ، ولم تحرم الباحثين من نقد الأحاديث التي يصلون إليها دون غيرهم ، نقداً يتسلط على المتن وعلى السند حسب أقيسة دينية منطقية . لقد اعترف جولد تسيهر ضمنيا بهذا المبدأ لمّا قال بأن عمر بن عبد العزيز قد تأثر بالسنّة نتيجة إقامته بالمدينة ، ولكنّه كان يهدف من وراء ذلك إلى الإدعاء بأن علماء المدينة قد تمكّنوا من القيام بعملية تشبه ما يسمى اليوم « غسل الدماغ » بالنسبة لخامس الخلفاء . فهم استطاعوا أن يجعلوه مناقضا لما كان عليه بنو أميّة وأهل الشام عامـة . لقـد انتصر بفضله جماعة التقاة على بني أميّة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يطمس كل الحقيقة ، فقد قال بعد ذلك : إن ما حصل في عهد عمر بن عبدالعزيز قد بقيت بعض آثاره في الأمويين الذين أتوا بعده .

طلب الحديث :

لو ترك جولد تسيهر المنهج الإستقرائي يسير سيره الطبيعي ، لتوصل من خلال دراسة سيرة عمر بن عبد العزيز إلى تقرير أنّ علماء المدينة كانوا يبحثون

عن الأحـاديث ويصححـونهـا وينقـدون رواتها نقدا بعيدا عن الهوى ليعرفوا الصحيح من الخبيث وليقدموا بعد ذلك ما يستطيع به المشرع أن يضع لكل حادثة حكمها ، وما يتمكن بفضله المسلم من معرفة الحلال والحرام . لقد تأثر عمر بن عبد العزيز بهذا المنهج ، وتربى بين أحضان مدرسة المدينة ، فأراد أن يحث العلماء في كل الأمصار على البحث والتنقيب ، حتى لا يندثر العلم ، وحتيى لا يبقى في المجتمع الإسلامي شخص جاهل بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا ما كان ممكنـا لجولد تسيهر أن يستنتجه ، وهو يدرس أخبار عمر بن عبد العزيز ، ولكنه جعل لنفسه غاية ثانية . لقد آلى على استقرائه أن يصل به إلى أنّ المسلمين سواء كانوا من أنصار الأمويين أو من العلمـاء التقـاة ، فإنهم لا يتبعون إلا أحاديث وسنناً وضعها هؤلاء وأولئك ، ونسبوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

لقـد ذكر أن الرسائل الصادرة عن عمر بن عبد العزيز كان موضوعها إما إحياء سنّة ، أو إماتة بدعة ، أو توزيع صدقة ، أو إعادة أملاك . فعمر حسب هذا النص ، يأمر بإحياء السنة ، فهل يمكن أن يكون ذلك الإحياء لغير سنة الرسول صلى الله عليه وسلم . أيجوز أن يكون إحياء لسنة سنها الأمويون أو علماء المدينة التقاة ؟ فهذه السنة تتطلب أن يجدّوا في طلبها وفي السعي إلى جمعها وتدوينها وحفظها من الإندثار .

لقد آمن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه مطالب بهذا العمل فجلس في المجالس ليحدث ، وتحمّل مشاق السفر ليسمع ولو حديثا واحدا من غيره .

لقد بدأت هذه الرحلة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . فكم من شخص وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليسأله عن أمر من الأمور ، وليتثبت في قضية من القضايا . فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه

قال : نهينا أن نسأل رسول الله عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل ، فيسأله ونحن نسمع (١) .

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا كثيرا ما يشاهدون أحد القادمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسأله أسئلة كانوا هم يتحاشونها ، ويهابون إلقائها لأسباب قد يكون من أهمها أنهم تجاوزوا مرحلتها . وأخبار الوافدين على الرسول صلى الله عليه وسلم موجودة في كتب الصحاح والسنن كحديث ضمام بن ثعلبة (٢) ووفد عبد القيس (٣)،وغيرها .

لقد كان جولد تسيهر مطلعا على هذه الرحلات ، فقد ذكر ما قاله أبو الدرداء « لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها علي إلاّ رجل ببرك الغماد لرحلت إليه (٤) .

فلماذا لم يتتبع أمر هذه الرحلات ، ولم يتساءل هل تواصلت أم توقفت في العهد الأموي ؟ لو فعل ذلك لأدرك أنّ المسلمين في القرن الأول ، وفي القرون الموالية ، كانوا يطلبون الأحاديث بكل الوسائل ، وخاصة عن طريق الرحلة. فقد خرج عامر بن شراحيل الشعبي ، وهو من أئمة التابعين إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذكرت له ، فقال : لعلّي ألقى رجلا لقي النبي صلى الله عليه وسلم .

إن رحلة الشعبي هذه لم تكن لطلب أحاديث يجهلها ، فقد ذكر له بعضهم هذه الأحاديث ، ولكنه خرج للتثبت والتأكد والإسناد العالي . كان

---

(١) طرف من حديث متفق عليه واللفظ لمسلم : كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام .

(٢) البخاري : صحيح : كتاب العلم =الباب السابع= باب القراءة والعرض على المحدث .

(٣) م . س = الباب ٢٦ تحريض النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا به من وراءهم .

(٤) ذكره جولد تسيهر في الفصل السادس .

باستطاعته أن يروي هذه الأحاديث عمن نقلها ويعفي نفسه من رحلة تأخذ من وقته وماله وراحته الشيء الكثير ، ولكنه لم يفعل لأنه لا يريد أن يعتمد على غيره ، ولا يرضى بأخذ الأحاديث إلا من المصادر الموثوقة . فقد روى ابن المديني ، أنه قيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله ؟ فأجاب « بنفي الإعتماد ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الجماد ، وبكور كبكور الغراب »(١) .

ولم يكن الشعيبي وحده الذي ارتحل في العهد الأموي ليطلب الحديث دون أن يمنعه الولاة والأمراء مما أراد ، ودون أن يرسلوا وراءه الجواسيس ليطلعوا على محاور الأحاديث التي يطلبها ، ودون أن يجبره أحد على أن يأخذ من هذا المصر أو ذاك . لقد ارتحل مثله سعيد بن المسيب . فقد روي عنه قوله : « إن كنت لأسير في طلب الحديث الواحد مسيرة الأيام والليالي(٢) » . ففقيه المدينة الذي وصفه علي بن المديني بأنه أوسع التابعين علما كان يرحل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليسمع حديثا من عالم قد استقر بمكة أو بغيرها من الأمصار الإسلامية .

وأحاديث التابعين الذين ارتحلوا من أمصارهم لطلب الحديث وسماعه قد جمعها الخطيب البغدادي في كتابه « الرحلة في طلب الحديث » . ومن خلالها يتأكد الباحث من أن المحدثين في العهد الأموي كانوا ينتقلون بكل حرية في أرجاء المجتمع الإسلامي لسماع حديث أو التثبت من سنة أو التأكد من تفسير آية . وهم في ترحالهم هذا يتعرفون على بعضهم ، ويتبادلون أحاديثهم ويناقش بعضهم بعضا ، ويعدّل بعضهم رويات بعض .

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ : ٧٦ ، تر : ٧٧ .

(٢) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث : ١٢٨ .

فهل كان الأمويون يشجعون هذا الطلب وهذه الرحلات ؟ وهل كانوا يتدخلون في نتائجها ، ويفرضون على أصحابها منهجا معينا .

مكانة الحديث في ثقافة العصر الأموي :

لقد فرض جولد تسيهر على دراساته أن تصل به إلى أن الإسلام في عهد بني أمية ، لم يكن له تأثير لا على السلوك ولا على الثقافة .

فالأخيرة قد استمرت جاهلية في شكلها وفي مضمونها . فلم تشهد المباحث المتصلة بالحديث وبالفقه وبالعقيدة انطلاقا إلا في دولة بني العباس ، ونتيجة لهذا الأمر أهمل أخبار هذا الطلب وهذه الرحلات ، واكتفى بالقول بأن الثقافة في العهد الأموي ، كانت وثنية التفكير جاهلية الأسلوب .

ترى هل تساءل جولد تسيهر وهو يتدرج بافتراضاته نحو النتيجة التي رسمها لنفسه عن مصدر ثقافة من الثقافات بصفة عامة ، والثقافة الإسلامية بصفة خاصة ، هل يجوز للباحث أن يقول بأن هذه الدولة أو تلك ، هي التي أوجدت هذا الفرع من فروع المعرفة وهي التي طورته وسهرت على كل ما قيل فيه ، وما نتج عنه ، أم أنّ حاجيات الأمم وتطلعاتها ومستواها الذهني والإجتماعي ، واستثمارها لما توصل إليه الفكر في الماضي هي الأسس التي تدفع العلماء والباحثين إلى الإنتاج والإبداع بإعانة من السلطة الحاكمة ، ومن غيرها من القوى التي توجد في المجتمع .

لو تساءلنا عن مصدر التقدم العلمي الذي تفتخر به الأمم المتقدمة ، أهو الحكومات وأصحاب السلطة ، أم هو الكليات والمخابر والمصانع ؟ ترى ماذا يكون موقفنا من مؤرخ للعلم يأتي ، وقد أصبحت للإنسانية ثقافة تتسم بنبذ الطرق السياسية الحالية المعتمدة على الندوات والمآدب والحفلات السياسية ، فيقول بأن علوم عصره التي صيرت الإنسان سيد الفضاء وأعماق

البحـار ، وأبعـدتـه عن كثير من الأمـراض ، لا أسـاس لها بمجتمع القرن العشرين . أنقبل قوله أم نلاحظ له بأن ملايين البشر في القرن العشرين ، وفي القـرون الخـالية ، كانت تتـطلع إلى ما وصلتم إليه اليوم ، وكـان العلمـاء والبـاحثون إذاك يتفاعلون مع هذه التطلعات ويسعون إلى تحقيقها . فكانوا يبحثون ويجتهدون : يجدون الإعانة من هذا الحاكم أو من ذاك ، ويزج بهم في سجن هذا أو ذاك .

لقد وقع جولدتسيهر في خطأ شبيه بخطأ هذا المؤرخ ، فقدّم المجتمع الإسـلامي في عصـر بني أمية وكـأنـه يتكـون كله من الحكـام ، وأصحاب السلطة . نسي أو تنـاسى أن الأمـويين وولاتهم ورجال شرطتهم ، لم يكن باستطاعتهم أن يكونوا وراء كل عالم يحددون تفكيره ، ويرسمون مجالات اتجاهه .

وإلى جانب ذلك أهمل الأخبار التي تفيد أن كثيرا من خلفاء بني أمية كانوا أبعد الناس عن الجاهلية . فهذا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، يخطب على منبر جامع دمشق فيقول : « أيّها الناس ، أعقلوا قولي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني ، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة أو ليخالفن الـله بين قلوبـكم . خذوا أيدي سفهـائكم أو ليسلطن الله عليكم عدوكم فليسومنكم سوء العذاب . تصدقوا ولا يقولن الرجل : إني مقل ، فإن صدقة المقل أفضل من صدقة الغني . وإياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول الرجل سمعت وبلغني . فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة [1].

إن خطبة معاوية هذه لا تشبه ما كان يصدر عن الراشدين الأربعة ، ولكن

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ٨/١٣٤ .

أين جانب الـوثنية فيهـا ، أهـو في الدعوة إلى التمسك بحبل الله المتين ، والابتعاد عن الفتن التي لا تصيب الظالمين فقط ، بل تصل آثارها السيئة إلى المتقين الصادقين . فقد قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب »(الأنفال : ٢٥)

وإذا كانت الـدعـوة إلى الابتعـاد عن الفتن إسـلامية في أصلهـا وفي أهدافها ، فهل يجوز القول بأن الوثنية هي في دعوة معاوية رضي الله عنه إلى أداء الصلاة على أحسن وجه ، أو هي التحذير من السفهاء والمتمخرقين الذين يسومون الناس سوء العذاب ، ويفسدون عليهم دينهم ويودون أن يعيدوهم إلى عبادة النار والأوثان .

إن خطبة أول الأمويين رغم قصرها بعيدة كل البعد عن التفكير الجاهلي ، ولا يمكن لصاحبها أن يفرض على العلماء نوعا من الثقافة يخالف التوجيهات الإسلامية . بل هو سيدعوهم إلى أن يحذروا الناس من أعمال ، كان أهل الجاهلية يمارسونها ، ويتفننون فيها ويبيحونها لأنفسهم ويتباهون بتعاطيها . لقـد ترك معاوية رضي الله عنه الدعوة إلى الثقافة الجاهلية المنافية للتعاليم الإسلامية منذ دخل الدين الجديد ، ومنذ أصبح كاتبا للوحي ، ومنذ تحمل المسؤوليات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي الخلافة الراشدة . لقد أخلص للدين ، وأصبح حذرا من كل عمل يقربه من الشيطان الرجيم . فنفسه اللوامة يقظة تبعد عنه المعاصي وتحميه من الوقوع في الخطأ .

لقد خطب يوما فقال له رجل : كذبت ، فنزل مغضبا ، ودخل منزله ، ثم خرج إلى الجـامـع تقطر لحيته ماء . فصعد المنبر وقال : أيها الناس ، إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان من النار ، فإذا غضب أحدكم فليطفئه بالماء(١) .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار : ١/٢٩٠ .

لقد كاد معاوية رضي الله عنه أن يرضي الشيطان . لقد كان باستطاعته ذلك ، فهو أمير المؤمنين ، وهو صاحب السلطة ، وهو المتحكم في الرقاب . ألا يستطيع أن يغضب ، وقد أسمعه أحد الحاضرين نكرا ؟ ألا يجوز له أن يعاقب هذا المتهور الذي سمحت له نفسه أن يكذّب أمير المؤمنين ، وهو يخطب . كان بالإمكان أن يسلط معاوية على هذا الشخص أشدّ ألوان العقاب . ولكنه لم يفعل لأنه مؤمن ، ولأن الإسلام قد علمه ، أنّ كاظمي غيظهم قد مدحهم الله تعالى ، وأثنى عليهم . فدخل منزله وتوضأ واستعاذ بربه من الشيطان ثم عاد إلى المنبر ليعلم المسلمين درسا في الإبتعاد عن الغضب وفي العفو عند المقدرة .

لا يسمح المجال هنا لذكر كل الخطب والوصايا التي صدرت عن معاوية رضي الله عنه ، وبينت بوضوح أنه رغم الأخطاء الإجتهادية التي وقع فيها ، إلّا أنه كان بعيدا كل البعد عن الوثنية التي أراد جولد تسيهر أن يرميه بها ، وأن يميز بها الثقافة التي وجدت في حكمه .

إن اقتداء خلفاء بني أمية بالرسول صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر وبعمر وبعثمان رضي الله عنهم ، من الأمور التي يقبلها العقل ، وتدعمها النصوص . فقد عاشوا في بيئة إسلامية ، يحرسها عقديا وسلوكيا صحابة كرام آلوا على أنفسهم ألّا يخافوا في الله لومة لائم ، وآمنوا بأنّ وظيفتهم تتمثل في إرشاد الأمراء وتنبيههم وتحذيرهم . فقد كتب أبو الدرداء مرة إلى معاوية : أما بعد ، فإنه من يلتمس رضا الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله ، وكله الله إلى الناس (١) . فبيئة فيها أمثال أبي الدرداء ، لا يمكن لأصحاب السلطة فيها أن يحيوا الثقافة الوثنية ، وكيف يفعلون ذلك وقد نقلت الأخبار التي أهملها جولد تسيهر ، أن الواحد منهم كان

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/ ٥٩ .

يخاطب أبناءه وعشيرته بقوله : « اتقوا الله ربكم وأصلحوا ذات بينكم ، وليجل صغيركم كبيركم وكبيركم صغيركم . . . » هكذا ابتدأ عبد الملك بن مروان وصيته التي توجه بها إلى أبنائه قبيل موته ، ثم قال لهم : « وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز ، فاصدروا عن رأيه ، ولا تتخلوا عن مشورته ، واتخذوه صاحبا ، لا تجفوه ، ووزيرا لا تقصوه ، فإنه ما علمتم فضله ودينه وذكاء عقله ، فاستعينوا به على كل مهم وشاوروه في كل حادث(١) .

أفلا يستنتج من هذه الوصية أن الخليفة يقدم العقل والإيمان والعلوم على كثير من الأمور ، وأنه يعتقد أنّ من خصه الله بها جدير بأن يكون للخليفة ناصحا . فهل سيصدر عن مثل هذا الشخص تفكير وثني ، وهل سيدعو إلى إحياء الفنون الجاهلية .

إنّ هذه الوصية مع غيرها من الوصايا التي قيلت في ظروف عديدة ، تثبت أن أغلب خلفاء بني أمية كانوا مؤمنين صادقين ، بعيدين عن الوثنية مدحضين آراء أصحابها ، داعين المسلمين إلى الإبتعاد عنها ، محاربين في سبيل نشر الإسلام ، ويكفيهم فخرا أنهم حافظوا على وحدة العالم الإسلامي ، فلم يخرج عنهم أي جزء من أجزاءه . ولعل جولد تسيهر عندما أصدر حكمه ضدّهم ، واتهمهم بأنهم لم يشجعوا إلا الثقافة ذات الإتجاه الوثني ، لم يطلع على النصوص التي تزخر بها بعض المصادر التي اعتمدها في دراساته كتاريخ الطبري ، وتاريخ اليعقوبي ، وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ومروج الذهب للمسعودي وغيرها من المصادر التي أوردت خطب ووصايا الأمويين وولاتهم وقادة جيوشهم ورجال المعارضة الذين عاصروهم وتفاعلوا معهم .

---

(١) اليعقوبي : تاريخ : ٢٨٠ ، الدينوري : الأخبار الطوال : ٢٨٠ .
المسعودي : مروج الذهب ٣/ ١٧٠ (هناك خلاف بين هذه المصادر في مضمون هذه الوصية) .

لعل جولد تسيهر قد اكتفى في هذه القضية بما قاله بعض الشعراء ، وبما صدر مِنْ أمثال وخطب وجدها قريبة من التفكير الجاهلي . فعمم حكمه ، وأهمل أن المسلمين في العصر الأموي كانوا قريبين من نقاوة العربية . فكانوا يعشقون الكلمة ، ويطربون للبلاغة والفصاحة .

وهكذا وقع في أخطاء علمية انطلق منها بعضهم على أنها حقائق لا يجوز التشكيك فيها . فهل يجوز بعد الآن التسليم بذلك ؟

والله ولي التوفيق